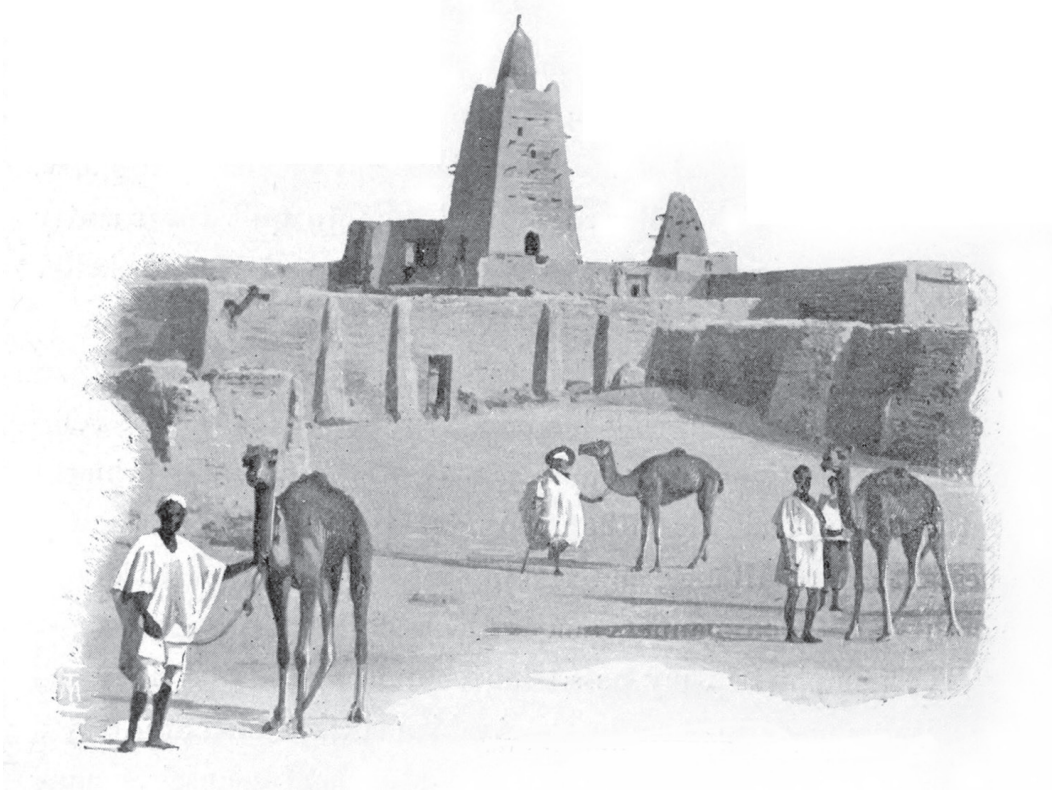

تنبكتو بعين الرحالة الفرنسي رينيه كاييه

أ.د. إبراهيم صبحي السيد غندر
أستاذ الآثار الإسلامية بكلية الآثار – جامعة الفيوم

انطلقت حركة الاستكشافات الجغرافية على وجه الخصوص من أوروبا نحو القارة الإفريقية في نهاية القرن الثامن عشر، وجاءت ضمن سياق التحرك الذي كانت تشهده القارة الأوروبية نتيجة النهضة التي أدت لتغيرات عميقة في أوروبا على جميع الأصعدة، كما انعكست على علاقاتها بالعالم الخارجي. وكان العلم هو المحرك الأول والظاهري لهذه الحركة في غرب إفريقيا، إذ كانت هناك رغبة شديدة لدى الجامعات والهيئات العلمية ونخبة الجغرافيين في أوروبا لمزيد من المعلومات حول جغرافية مختلف المناطق في العالم وليس إفريقيا فحسب، وفي هذا الإطار تبارى المستكشفون من أجل ذلك طمعاً في الثراء المادي أو المجد العلمي والسبق الأكاديمي.

ومـــا لبثـــت أن تحولت حركة الكشـــوفات إلى أهداف استعمارية، واضطر المستكشفون للخضوع والإذعان لذلك، حيث إن تمويلهم المادي كان من تلك المؤسسات الراعية لهذه الرحلات، وتحولوا بالتالي لأدوات فـــي قبضة حكوماتهم، حيث اســـتخدمتهم للتمهيد لاستعمار هذه المناطق؛ فسهّلوا لجيوشهم التوغل في غـــرب إفريقيا بفضل المعلومات القيّمة التي وفّروهـــا حول مختلف التضاريس والســـكان وكل ما يتعلـــق بهذه المناطق، ومنهـــم من بالغ في ذلك فقدّم حتى الإرشـــادات حول كيفية التعامل مع الســـكان وحكامهم. أما المستكشفون الذين جاؤوا في النصف الثاني من القرن التاســـع عشـــر؛ فقد جاؤوا من بلادهم مدفوعين بالفعل من أجل التمهيد لتنفيذ المخططات الاستعمارية الصرفة.

وتُعتبر مناطق السودان الغربي من أشهر المناطق التي شهدت كمّاً كبيراً من الرحالة الذين استطاعوا الوصول هناك، وكانت تنبكتـــو (تمبكتو) على وجه الخصوص بوصفها أحد أشهر وأهم مدن السودان الغربي مما سلبت ألباب الرحالة الأوروبيين، فكانوا يتكبدون المصاعب والأخطار من أجل بلوغها، حتى إن منهم من ضل طريقها، ومنهم من أســـعفه الحظ في الوصول، ومنهم من مات دونها أو على مشارفها قبل أن يصل إليهـــا، كما قرر البعض ممن وصلوها المكـــوث بين أهلهـــا لارتباطهـــم بالمكان، وتُعتبر كتاباتهم عنها هي الأكثر دقةً وشمولية، وقد استقوا الكثير من معلوماتهم من كثير من المصادر العربية الإسلامية الوسيطة، ونصت كتاباتهم صراحةً على ذلك، وجاءت كتاباتهم في صورة كتب وتقارير أمنية وملاحظات ومشاهدات، وكذلك دراسات جيولوجية وسوســـيولوجية وجغرافيـــة وإحصائيات وخرائط وبيانـــات، وغير ذلك مما ســـطروه حـــول مختلف أصقاع هذه المناطق.

تمهيد:

يُعـــدّ المستكشـــف الفرنســـي «رينيـــه كاييه» René Caillié (١٧٩٩-١٨٣٨م) أحـــد أهم هؤلاء المستكشفين، الذين أغراهم العرض المادي السخي الـــذي وعدت به الجمعيـــة الجغرافية الفرنســـية أول أوروبـــي يصل إلى مدينـــة تنبكتو ويجلب عنها المعلومات الكافية ويعود حيّاً، فأجج ذلك حماســـه الاستكشـــافي، والـــذي عبّر عنه فـــي كتابه بقوله: «سأصل إليها حيّاً أو ميتاً»[١].

وقد كان رينيـــه كاييه مفتوناً بالشـــرق عموماً وتمبكتو خصوصاً، وكان قد شارك من قبل ذلك في حملة استكشـــافية بقيادة «وليم جراي» William Gray والدكتور «دوشـــار» Dochard، وذلك سنة (١٢٣٣هـ/١٨١٨م)[٢]، مما أكســـبه بعض الخبرات. وعلـــى الرغـــم من رفـــض الحكومتين الفرنســـية والإنجليزيـــة تقديم أي نوع من الدعـــم المادي أو المســـاعدات ولو البســـيطة إليه؛ فإنه أصر على الرحلـــة، واضطر للاعتمـــاد علـــى كل مدخراته الخاصة، والتي لم تتجاوز ألفي فرنك[٣].

نبذة عامة عن الرحلة:

انطلق رينيه عام (١٢٣٩هـ/١٨٢٤م) من فرنسا بحراً حتى وصل إلى طنجـــة، ثم خاض الصحاري المقفرة والغابات الموحشـــة، وواجه الموت مرّات كثيرة، حتى وصل الســـنغال، فمكـــث هناك ثلاث ســـنوات، تعلم فيها اللغة العربية[٤] وعادات السكان المحليين، وكان هذا بمثابـــة التجهّز لرحلته صوب تنبكتو.

---

(١) Caillié, René: Journal d'un voyage a Temboctou et a Jenné dans l'Afrique centrale, Tome 1, l'Imprimerie royale, Paris, 1830, p.1.

(٢) Dumont, Jean (ed.): L'histoire générale de l'Afrique, Tome 1, Editions Beauval, Paris, 1971, p.60.

(٣) Larousse, Les grands explorateurs, p.198, paris, 1899.

(٤) عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ص٢٠٧، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

وخوفـاً أن تُكتشـف هويته فيُقتـل، أو يموت كسـابقه «كلابيرتون»[١]، قـام بتلفيق قصة خيالية لنشـأته وحياته، ادعـى فيها أنه مصري مسـلم اختُطـف وهو طفل في الإسـكندرية على يد جنود نابليون بونابرت أيام الحملة الفرنسية، ثم نُقل عبداً للسـنغال، حيث بقي هناك حتى كبر، ويرغب الآن في أداء فريضـة الحج التـي كان طريقها بالطبع يمرّ بمدينة تنبكتو، وقد اسـتغل هذا الادعاء كذلك لتبريـر صعوبة تحدثه بالعربيـة، حيث مكث كثيراً لا يتحدث بها بسـبب سـجنه منذ أن كان صغيراً، وكذلك عملـه كعبد لدى كثير ممن لا يتحدثون بها، وتظاهر بالإسلام؛ فكان يصوم أيام رمضان الحارة، ويصلي الصلوات الخمس، خصوصاً في الفترة التي قضاها أسيراً على يد إحدى القبائل العربية بالجنوب الموريتاني؛ حيث كانـت زوجة رئيس القبيلة وبناتها يتسـلَّين برؤيته، ويتعجبن من بياضه، ويتفحصنه من كلّ مكان وكأنـه كائن مختلف وغريب، وذلك قبل أن يحرره المقيم الفرنسي العام في السنغال من الأَسر مقابل فدية مالية كبيرة.

وبعـد أن تعلم العربية ومبادئ الإسـلام توجّه عـام (١٢٤٢هـ/١٨٢٧م) إلى «ريـو نونز» Rio Nunez[٢]، حيث بدأ يتأهب لرحلته لمناطق غرب إفريقيا، وعلى الرغم من عدم امتلاكه من المال ما يكفيه آنذاك لشراء كل مستلزمات الرحلة من أجل إنجاحها، كالدواب والعتاد وأموال استئجار الأدلاء، فإنه غامر وانطلق فـي (٢٣ رمضان ١٢٤٢هـ/٢٠ أبريـل ١٨٢٧م) ببعض البضائع القليلة ليتكسـب مـن بيعها خلال رحلتـه، وكان وصوله لمصب نهر السنغال في مايو من العام نفسه.

وفـي (١٠ محـرم ١٢٤٣هـ/١٣ أغسـطس ١٨٢٧م) وصل رينيـه إلى مدينة «تيمي»[٣] Time، والتي قضى فيها قرابة سـتة أشـهر بسبب مرض ألـمَّ به هناك، ثم غادرها فـي (٢٢ جمادى الآخرة ١٢٤٣هـ/١٠ يناير ١٨٢٨م) متوجهـاً نحو مدينة «جينـي»[٤] Jenne، وبعد بلوغها توجه إلى «كابرا» Kabra، وهـي ميناء تنبكتو الرئيسـي على الضفة الشـمالية لنهر النيجر، فوصل إليها في (٤ شوال ١٢٤٣هـ/١٩ أبريل ١٨٢٨م).

ثم دخل تنبكتو عند غروب شمس (٥ شوال/٢٠ أبريـل)، وذلك بعـد مضي عام مـن انطلاقه من السـنغال، قطع فيها نحو ألفين وأربعمائة كيلومتر؛ منها ألف وستمائة كيلومتر سيراً على الأقدام[٥].

---

(١) هو المستكشف الإنجليزي Hugh Clapperton، الذي انطلق من إنجلترا سنة (١٢٤١هـ/١٨٢٥م)، ووصل إلى باداجري Badagry التي تقع حالياً على ساحل بنين، وكان صحبة عدد من الأوروبيين ومعه خادمه ريتشارد لاندر، واستطاعوا الوصول لمدينة كاتونجا Katanga عاصمة اليوروبا، كما وصل في نفس العام لكانو Kano بشمال نيجيريا، وما لبثوا أن توجهوا لسوكوتو Sokoto، وهناك مرض ومات في (١٦ رمضان ١٢٤٢هـ/١٣ أبريل ١٨٢٧م) بالدوسنتاريا، وكان بذلك أول أوروبي يصل إلى السودان الغربي انطلاقاً من ساحل غينيا، وعاد خادمه وسلم تقارير سيده لوزارة المستعمرات البريطانية في (١٥ شوال ١٢٤٣هـ/٣٠ أبريل ١٨٢٨م).

(٢) نهر نونيز أو ريو نونيز (كاكاندي): هو نهر في غينيا، منبعه في مرتفعات فوتا جالون، عند منطقة بوكيه. ويُعرف أيضاً باسم نهر Tinguilinta، بعد قرية على طول مجراه العلوي، ويتدفق النهر الضحل عبر التلال المنخفضة مع العديد من المنحدرات ومجموعات الجُزر الصغيرة، ويقع بين نهر كوغون من الشمال ونهر بونغو إلى الجنوب، ويصب في المحيط الأطلسي عند ميناء مدينة كامسار، على طول ساحل غينيا كوناكري، ويتمدد النهر كل عام خلال موسم الأمطار، وهو ملتقى لعدة تيارات صغيرة، مما ينتج عنه السهول الفيضية والمستنقعات الداخلية، ويسكن هذه السهول الفيضية شعوب نالو وباغا، وتقع مدينة بوكي على بعد حوالي ٦٤ كم من منبعه؛ وهي المدينة الأكبر على هذا النهر والمركز التجاري الرئيس لغينيا، ويبلغ عرض النهر هناك حوالي ١٠٠ متر، وعمقه ١ متر.

(٣) تقع حالياً على حدود مالي مع كوت ديفوار. Larousse, op. cit., p.181.

(٤) تقع حالياً ضمن مدن جمهورية مالي في دلتا نهر النيجر الوسطى. Dumont, Jean (ed.): op. cit., Tome 4, p.367.

(٥) جوزيفين كام، المستكشفون في إفريقيا، ترجمة السيد

ويتضـــح لنا في ضوء ذلك: مدى الإصرار الذي ميّز الرحالة والمغامرين الأوروبيين في هذه المرحلة من أجل اختراق إفريقيا واستكشافها.

صورة شخصية لرينيه متخفياً بالزي الإسلامي بتنبكتو يدون ملاحظاته.
عن رينيه (ج٢/ ص ٧١).

رحلة نهرية من جيني لكابرا:

كانت جينـــي[١] هي المحطة الأخيرة في رحلته مـــن أجل بلوغ تنبكتو، وقد اســـتقل زورقاً بمينائها، واتجه عبر النيجر صوب الشـــمال الشرقي قاصداً تنبكتو، وفي الميناء كانـــت هناك مجموعات كبيرة مـــن القوارب تنتظر، ربما لقرابة ســـتين يوماً، قبل أن تنطلـــق في طريقها من جيني نحو تنبكتو، وذلك بســـبب سوء الأحوال الجوية، أو ربما لأنها لا تمتلك

يوسف نصر، ص١٤٦، القاهرة ١٩٨٣م.

(١) جيني: مدينة من مدن السودان الغربي يعود تأسيسها للقرن الثاني قبل الميلاد، ويرجع تأسيسها في العصر الإسلامي للقرن الأول أو الثاني الهجري، وتطلق عليها المراجع العديد من التسميات مثل «كني» و«كناوه». وذكر السعدي عنها في تاريخ السودان أنها مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة، جعل الله ذلك في خلقها خلقاً وجبلة، وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمواساة. المرجع: السعدي، تاريخ السودان، ص٢٧.

لقد كانت هذه المدينة الغامضة، وكذلك سكانها، وحضارتها، وتجارتها، مثاراً للفضول عبر مختلف العصور

حالياً ما تدفعه من رســـوم المـــرور، أو ربما كذلك بســـبب تكدس حركـــة الملاحة التـــي كان ينظمها ويشـــرف عليها الطوارق بشـــكل رئيسي، وبعد دفع رســـوم العبور بالميـــناء اتجه الـــزورق وعلى متنه مجموعـــة من الرقيـــق المملوكيـــن لمضيف رينيه «سيدي عبد الله الشبير»[٢].

وكان رينيه يلاطف دائماً قبطان الزورق؛ فأهداه قطعة من القماش الملون ليجعله غطاءً على رأسه، وكان يهدف من وراء ذلك إلى كسب ودّه حتى يفيض عليه بالقليـــل من الطعام غير أنه لـــم يفعل، وكان ذلك أثناء أيام شـــهر رمضان، فـــكان رينيه يتخفى أحياناً داخل بساط من الحصير يلتف به على سطح القارب تذرعـــاً بتجنب حرارة الشـــمس الملتهبة، وكذلك ليتناول بعض فتـــات الطعام القليل حتى لا

(٢) كان مضيفو الرحالة عموماً ممن لهم علاقات مباشرة بالساسة الأوروبيين أو علاقات غير مباشرة بهم عن طريق كبار التجار ورجال المال والأعمال أو الساسة ببلاد المغرب، والذين هم بالتالي تكون لهم علاقات ومصالح مشتركة بالأوروبيين، سواء كانوا قناصل أو رجال مال أو أعمال، وقد بين رينييه كيف أن مضيفه كان على علاقة ببعض تجار السنغال، وأنه استغل ذلك في طلب التوصية منهم لديه، فاستضافه خلال فترة تواجده بتنبكتو كأحد وجوه الخير التي قدمها إليه، وقد عبّر رينييه في غير ما موضع عن شديد امتنانه لذلك المضيف، ولم يكن يخاطبه سوى بلقب «سيدي عبد الله الشبير» احتراماً وتوقيراً له، وفي الوقت ذاته تأكيداً للرواية التي اختلقها حول سنوات عبوديته الطويلة.

يلاحظه أحد من الصائمين.

وبعد وصول «كابرا»[١] في العشـــرين من أبريل اكتروا بعض الحمير واتجهوا شـــمالاً صوب تنبكتو، وشـــكّل المســـافرون قافلة صغيرة مكوّنة من عبيد مضيفه، ومجموعات أخرى من التجار والعبيد التي كانت ترافقهم عبر الرحلة النهرية، وكانوا يســـيرون على الأقدام؛ وذلك لأن صغار العبيد كانوا يمتطون الحمير[٢]، وقـــد مروا ببحيرتيـــن كانت ضفافهما تفيض بالمياه، ونمت حولهما أشجار السنط بارتفاع يزيد عـــن ثلاثة أمتار[٣]، وهنا بدأت عيناه تشـــعر بالارتياح لمشـــاهدة منظر الغطاء النباتي، ولكن ما هي إلا ســـويعات قليلة حتى بلغوا منتصف الطريق، وعندها ظهرت المســـطحات الواسعة من فرشات الرمال الصفراء الناعمة، مما جعل الســـفر صعباً للغايـــة، ويذكر رينيه أنه في هـــذه المرحلة: تبعنا- على جواد مُطهّم- خمسيني من زنوج الطوارق، غير أن لمعان عينيه، وبريق وجهه، يظهره وكأنه ثلاثيني ممتلئ بالنشـــاط والحيوية، وأخذ يحملق في وجهي ويتفحصني بمنتهى الدقة، ثم سألني من أكون؟ ومن أين أتيت؟، وسرعان ما بادره أحد مماليك مضيفي بأننـــي عبد فقير، ومملوك لســـيدهم، وأننا إذا ما وصلنا بخير فلســـوف يخصّه مليكنا بهدية، ويبدو أن ذلك قـــد أرضاه قليلاً، فكف عـــن التحرش بنا ومتابعتنا، ليأسه من الحصول على شيء منّي.

الانطباعات الأولى حول تنبكتو:

لقد كانـــت هـــذه المدينة الغامضـــة، وكذلك ســـكانها، وحضارتها، وتجارتها، مثاراً للفضول عبر مختلـــف العصور، وقـــد أحيط ذلك كلـــه بكَمٍّ من المبالغات، والتصـــورات التي ربما جاء الكثير منها غيـــر مطابقٍ للواقع تماماً إلا فـــي أقل القليل، فلم يكن المشهد الأول للمدينة يتطابق مع أدنى توقعات رينيه، فقد شـــكّل في الماضي فكرة مختلفة تماماً عن مدى عظمتهـــا وثروتها، لقد أُصيب بخيبة أمل كبيـــرة لأن ما رآه فيها للوهلة الأولى لم يكن يتطابق مع أدنى تصوراته التي كان يترســـمها بمخيلته، ولا مع ما حظيت به المدينة من شـــهرة واســـعة لدى الأوروبيين، فقال عنها: «فـــي الحقيقة؛ فإنّ تنبكتو وضواحيها تعطي مشـــهداً رتيباً وقاحلاً لم أر مثله في حياتي، إنها لا تمثل ســـوى كومـــة من المنازل المبنيّة بالطين بطريقة سيئة، وفي كلّ الاتجاهات لا ترى إلا سهولاً رملية واسعة جرداء... فالسماء ذات لون أحمر باهت في الأفق، وكل شـــيء في الطبيعة حزيـــن، هناك صمـــت مطبق، لا تســـمع فيه حتى تغريدة طائر واحد»[٤].

(١) كابرا: هي قرية كبيرة على الضفة الشمالية لنهر النيجر مباشرة، وهي ميناء تنبكتو الرئيسي، بالإضافة لعدد آخر من الموانئ الموسمية، وتتميز بزراعاتها المتنوعة، وبها الكثير من البيوت والأكواخ لمختلف عرقيات الزنوج، ويعمل غالبية أهلها في النقل البري والنهري، وهي بمثابة نقطة وصل تنبكتو بمختلف المدن الرئيسية الواقعة على مجرى النهر الملاحي، ويقيم بها مندوبو سلطان تنبكتو للرقابة على مختلف الشؤون التجارية وتحصيل الرسوم المفروضة على السفن والقوافل القادمة من وإلى تنبكتو.

(٢) هذا مما يدل على مدى رأفة المسلمين وحسن تعاملهم مع العبيد بصفة عامة، ناهيك عن غلمانهم الصغار، وهو ما أكده كثير من الرحالة الذين زاروا المدينة: من أن العبيد والقيان نساءً ورجالاً كانوا يحظون بمعاملة ممتازة، مما جعل الكثير منهم يفضلون حياة العبودية عما سواها.

(٣) تلك هي المنطقة التي وصفها الحاج عبد السلام الشعباني في كتاباته بأنها الغابة التي توجد إلى جوار تنبكتو مما يلي كابرا، ووصف أشجارها بأنها تشبه صواري السفن ولا تحمل أية أوراق، كما قارنها ببعض الأشجار التي رآها في إنجلترا من حيث ضخامتها وعظم جذوعها. المرجع:
James Grey Jackson, an account of Timbuctoo and Housa Territories in the interior of Africa by El Hage Abd Salam Shabeeny, p.15, with notes, critical and explanatory to which is adden letters descriptive of travels through west and south Barbary and across the mountains of Atlas also fragments, notes, and anecdotes, specimens of the Arabic epistolary style, London, 1820.

(٤) Caillié, René: Op. Cit., Tome 2, p.301.

مدينة تنبكتو، عن رينيه كاييه، (ج٢/ ص٧٤).

طقوس الضيافة ومقر إقامة رينيه:

كان مضيفه على علم تامّ بمدى ما واجه رينيه من صعوبات بالغة خلال الرحلة الشاقة، ولذا فقد استقبله مباشرة في بيته الخاص بكل الود، والترحاب، والحميمية، ثم دعاه للحديث معه، وتناول طعام العشاء؛ حيث قدّم الخدم صحناً كبيراً من الكسكس المصنوع من الدُّخن[1] مع لحم الضأن؛ فتحلّق ستة من الرجال حوله، وحاول قدر استطاعته وبصعوبة أن يأكل بأطراف أصابعه كما كانوا يأكلون هم حسب تقاليد الإسلام.

وبعد أن شكر رينيه مضيفه وحيّاه بتحية المساء؛ ذهب ليتخذ مضجعه في ملحق سكني ضمن بيت مضيفه، فولج من خلال فناء صغير في غرفة فُرشت أرضيتها بحصير، فتمدد عليه عساه ينام، فلم يستطع، فذهب للفناء المجاور ربما تغفو عيناه قليلاً، غير أنه تيقن باستحالة النوم في هذه الحرارة الشديدة، حيث يبدو الليل هنا كالنهار، وذلك من شدة السخونة وارتفاع درجات الحرارة، فالأجواء تخلو تماماً من هبّة نسيم رطب، وعلى كلّ الأحوال فهو منذ بداية رحلته- كما يذكر- لم يشعر براحة تُذكر، ولا يجد في نفسه انزعاجاً من ذلك الأمر.

(١) يطلق سكان السودان الغربي على حبوب الذرة اسم الدُّخن، وكذلك بعض الكتاب والرحالة العرب المسلمين القدامى، ويُعتبر الكسكس من الأطباق المغربية المهمة التي دخلت تنبكتو بعد الغزو المغربي لها، وانتشرت هناك انتشاراً كبيراً حتى أصبحت الطبق الرئيسي والمفضل للغالبية العظمى من السكان، بغض النظر عن الشرائح الطبقية أو الجنسيات العرقية، وكان يقدم كوجبة مميزة ورئيسية مع اللحم.

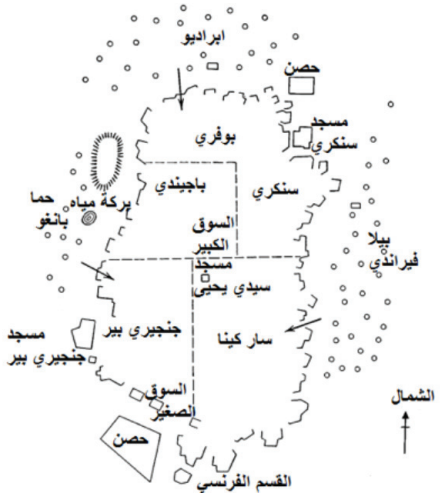

أحياء المدينة وأسواقها ومساجدها عقب الاستعمار الفرنسي، عن:
Horace Mitchell, The primitive city of Timbuctoo, p.37

الجولة الأولى في المدينة:

قدّم رينيه في صباح اليوم التالي مباشرة (٢١ أبريل سنة ١٨٢٨م) بالغ الشكر والامتنان لمضيفه، ثم خرج يتجول في المدينة فوجدها ليست كبيرة جدّاً، وليست مزدحمة بالسكان كما كان يتوقع، فتجارتها ليست كبيرة كما ذكرت التقارير عن شهرتها، ولم تكن ملتقى للغرباء من جميع أنحاء السودان كما الحال في مدينة جيني، ولم ير في شوارعها غير الجمال فقط التي وصلت من كابرا محملة بالبضائع، هناك مجموعات قليلة من السكان يجلسون على الحصير يتحدثون معاً، والموريون[2] يرقدون نائمين في الظل أمام أبواب

(٢) المور، والجمع: الموريون، مصطلح في اللغات الأوروبية ذو استخدام شعبي وعامي، يطلق على كلٍ من: سكان شمال إفريقيا، أي في المنطقة المغاربية، كما أنه يمكن أن يشير

البيوت، وبالجملة فإنّ المشهد العام للمدينة باهت!

لقـــد اندهش! من ذلك الخمول الذي يصل إلى حد الكســـل، ويبدو أنه الطابع العـــام للمدينة، كان هناك بعض بائعي الكـــولات[١] (أو الكولا) والبندق يصيحون في الشوارع كما هو الحال في جيني، وفي حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر- عندما انكسرت حدة الحرارة- رأى العديد من التجار الزنوج يرتدون ملابـــس جيدة ويمتطون خيولاً بســـروج جميلة قد خرجوا للتريض، ولكـــن تمنعهم حكمتهم من مجرّد المغامـــرة بالخروج بعيداً عن نطـــاق المدينة خوفاً من الطوارق، الذين سيجعلونهم يدفعون ثمناً باهظاً لتريضهم هذا.

التخطيط العام للمدينة:

شـــكّل الإطار العام للمدينة لـــدى رينيه هيئة مثلث، محيطه حوالي ثلاثة أميال[٢]، ولا يحيط بها حالياً أية أسوار دفاعية[٣]، إذ يمكن الولوج فيها من أية جهة.

ومنازلها كبيرة غير أنها ليست مرتفعة، وتتكون فـــي الغالب من طابـــق واحد أرضـــي، وفي بعض الحالات يتم إنشـــاء رحبة صغيرة تتصدر المدخل، مبنية من الطوب اللبن بشـــكلٍ شـــبه دائري، وهذا الطوب شبه مستدير، ومصنوع يدوياً، ويُجفف تحت حرارة الشمس، وتشبه مادة البناء هذه نظيرتها في جيني.

وتتميز شـــوارع المدينة بأنها نظيفة، واتساعها مقبول إلى حدٍّ كبير، حيث يسمح لثلاثة من الفرسان بالمرور جنباً إلى جنب، وحول أطراف المدينة توجد العديد من الأكواخ المصنوعة من القش ذات الشكل الكروي[٤].

بالتحديد لأمازيغ موريتانيا، وهي منطقة ضمت بعد ذلك شمال وشرق المغرب الحالي وشمال غرب الجزائر، ويطلق المصطلح من دون تمييز عرقي أو ديني أو ثقافي واضح. وأطلق المصطلح فيما بعد على المزيج العربي الأمازيغي والأوروبي الذي تشكل في شبه الجزيرة الأيبيرية بعد فتح الأندلس، وذلك بحسب الموسوعة البريطانية أيضاً، ولا تُستخدم اللفظة دائماً بطريقة مهينة، بل حسب السياق الذي تُعرض فيه الكلمة، ويمكن أن تحمل الكلمة معنى إيجابياً. وقد استُخدم هذا المصطلح أيضاً في أوروبا بمعنى أوسع نطاقاً للإشارة للمسلمين بشكل عام، خاصة أولئك المنحدرين من أصل عربي أو أمازيغي، سواء كانوا يعيشون في إسبانيا أو شمال إفريقيا.

(١) الكولا: نبات إفريقي مميز، وهذه الشجرة هي شجرة «غور»، وتُعرف علمياً باسم C.nitida، ولها تسميات متقاربة في معظم لغات إفريقيا woro، wuro، guro، goro ، وتنبت في الغابات المطيرة على امتداد المناطق من سواحل غينيا إلى الكنغو، ولثمارها خواص كثيرة جعلتها ثمرة مميزة في الوسط الإفريقي، فتحتوي على مواد نيكوتينية منشطة ومنعشة، تسهّل على ماضغها العمل بنشاط، وتساعد التجار على قطع المسافات الشاسعة في الصحراء الكبرى دون عطش أو جوع أو إعياء شديد. وبمرور الزمن تغلغلت هذه الثمرة في الحياة الاجتماعية والثقافية للشعوب، فيرسلها الخاطب إلى أولياء المرأة التي يريد الزواج بها، وقبولها يعني قبول الخطبة. وترسل إلى الخصوم طلباً للصلح، ويتهاداها الأصدقاء، وتُستخدم في الطقوس السحرية والأدوية الشعبية، وقد قامت تجارتها وزراعتها بأثر كبير في رواج حركة التجارة بين شعوب إفريقيا، وفي حركة المد الإسلامي في أعماق الغابات جنوباً، وذلك منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وتخطت حركة تجارتها إفريقيا خلال القرن التاسع عشر فوصلت للبرازيل ودول أخرى، كما دخلت في تصنيع المشروبات المعروفة بالكولا. المرجع:
Paul E.Lovejoy, Kola in the history of west Africa, Cahiers d etudes Africaines, Vol.20, Cahier 78/77, (1980), pp. 97-134.

(٢) الميل: هو وحدة قياس المسافات البعيدة والمسافات الطولية المرتفعة، ويبلغ ١,٦٠٩٣٤٤ كيلو متر، وهو ما يعادل ٥٢٨٠ قدم.

(٣) ذكر الشعباني: أن المدينة مع نهايات القرن الثامن عشر كانت محاطة بخندق جاف وسور طيني ضخم، وحدد طريقة بنائه وأبعاده وارتفاعاته وأبوابه الثلاثة، والتي كانت في الشرق باب القبلة، وفي الشمال باب الصحراء، وفي الجنوب باب النيل، وكانت عليها أبواب خشبية ضخمة مصفحة بالمسامير الحديدية، المرجع: James Grey Jackson, op. cit, p.15.

(٤) كانت هذه النوعية من المنشآت تمثل نمطاً من أنماط المباني الفقيرة التي تسكنها الشرائح الدنيا من الطبقات الاجتماعية بالمدينة، كالصيادين والمزارعين القرويين أو الرعاة والحدادين وصانعو النعال، وغيرهم الكثير من العبيد والأقنان الذين كانت تنتشر مساكنهم هذه عند أطراف المدينة أو بالقرب من الحقول أو برك المياه التي يعملون بها

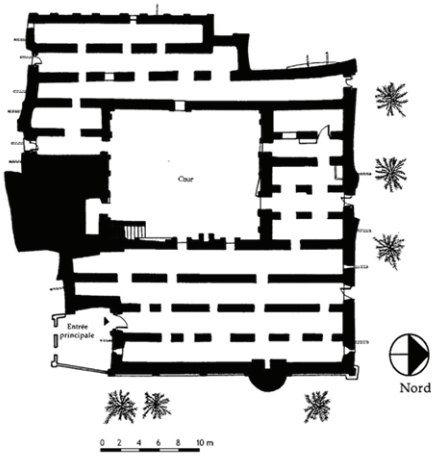

مسقط أفقي لمسجد سنكري بتنبكتو، عن منظمة اليونسكو.

مساجد تنبكتو:

تضم المدينة ثلاثة مساجد رئيسية هي: مسجد جنجيري بير، ومسجد سنكوري، ومسجد القاضي سيدي يحيى، وهناك خمسة مساجد غير تلك لكنها صغيرة ومبنية مثل البيوت الخاصة، وبالإضافة إلى أن كلّاً منها تعلوه مئذنة فلكلٍّ منها صحن داخلي، يلجأ إليه الناس في المساء لأداء شعائرهم الدينية، ولا يتقاضى المؤذنون عن عملهم شيئاً، سوى أنهم في فترات محددة يعلنون للمسلمين من أعلى قمم المآذن أن الوقت قد حان لأداء الصدقات[1]، فيسارع الناس إلى تقديمها، وقد كانت مكونة من الخبز والدُّخن والأرز والأسماك المجففة والفستق والبقس، وغيرها، وقد وُضعت كلها على حصير مفروش على الأرض أمام باب المسجد.

اعتُبرت كتابات رينيه مرجعاً مهماً لكثير ممن جاؤوا بعده من الكتاب والرحالة، والذين ثمنّوها بالفعل، وقدّروا مدى ما أفادتهم به؛ على الرغم من اشتمالها على بعض المغالطات

منازل تنبكتو ومخططاتها:

تُعدّ البيوت السكنية عصب العمارة في تنبكتو، ويشكّل تخطيط كلّ منزل مساحة مربعة، ويحتوي بعضها على فناء واحد، والبعض الآخر على فنائين داخليين متصلَين، تتراصّ حولهما الغرف ذات الشكل المستطيل غالباً، وتُستغل كأماكن للمعيشة أو كخزانات وحواصل لتخزين المؤن، وتستقبل هذه الغرف الضوء من الأفنية؛ إذ لكل غرفة باب صغير للغاية يُفتح على الفناء الداخلي، ولا تضم المنازل فتحات شبابيك على الخارج إلا فيما ندر، وإن وُجدت تكون مرتفعةً وضيّقة للغاية، وكذلك لا توجد مداخن، فأهالي تنبكتو لا يوقدون النار داخل بيوتهم شأن بقية شعوب السودان، فيقومون ببناء المواقد والأفران ضمن رحبات تتبع ملاحق هذه البيوت، وأحياناً تضم الأفنية الداخلية أكواخاً صغيرة[2]،

سقائين للمياه بالقرَب الجلدية، سواء للمنازل بالأجرة، أو جوالين بها في الأسواق للمارة، وهذا النمط من المباني كان من مواد عضوية هشة وضعيفة قابلة للاشتعال بسرعة، غير أنه كان يفي بأغراض الإيواء البسيط لمثل هؤلاء الفقراء.

(١) المقصود هنا الزكاة، ويبدو أنها كانت محددة بوقت جني الثمار أو الحصاد عموماً، والمرتبط بمواسم الفيضان لنهر النيجر، وبالتالي فقد كانت معظم الزكاوات تخرج في صورة حبوب وثمار مما تنبت أرض تنبكتو، ويتم تجميعها في المساجد الكبرى حتى يتم توزيعها على المستحقين وفقاً لتعاليم الدين الإسلامي، وذلك من قِبَل خازن بيت المال الموكّل بذلك من قِبَل سلطان تنبكتو وقضاتها الشرعيين.

(٢) توضع هذه الأكواخ كنوع من المنشآت التراثية التي كان يسكنها الآباء والأجداد في سالف الأزمان قبل أن يستقروا في بيوت ومنازل طينية، وقد جعلوا منها وحدات مستقلة تبنى بداخل أفنية البيوت، وأحياناً تبنى في الخارج في الرحبات، وأحياناً تبنى في مناطق العمل كالحقول والمزارع ومناطق رعي قطعان الماشية، وغالباً من تكون من مواد عضوية كالقش والقصب والحصير المضفور وذات أسقف

يهجع سكان البيت إليها ليلاً أو نهاراً على حسب التقلبات الجوية، خاصةً في الصيف عندما تكون الغرف في غاية السخونة.

مياه الشرب في تنبكتو:

يوجد بالجهة الجنوبية بغرب البلدة مجموعات من صهاريج كبيرة للمياه، تبلغ مساحة الواحد منها من حوالي خمسة وثلاثين إلى أربعين قدماً، وهذه الخزانات تغذيها الأمطار، وهي المصدر الرئيس للمياه العذبة في المدينة، حيث تُستخدم في مختلف الأغراض المنزلية، وإعداد الطعام، ويقوم خدم البيوت من الرقيق بتوفير حاجة المنازل منها بشكل يومي، حيث يقومون بسحب المياه من تلك الخزانات بأكياس جلدية مستديرة الشكل، ثم يملؤون به قرباً جلدية تُحمل على ظهور الحمير للمنازل مباشرة، حيث توجد بها جرار فخارية ضخمة يتم فيها تخزين الماء.

أمير تنبكتو:

وهو زنجي مسلم أسود متدين[1]، ويُدعى عثمان، وقد يكون في الخامسة والخمسين من عمره، وشعره أبيض مجعّد، متوسط القامة، ولون بشرته كالكهرمان الأسود، معقوف الأنف، ذو شفتين رقيقتين، ولحية رمادية، وعينين واسعتين، منفرج الأسارير، ولباسه مثل لباس مغاربة مراكش من خامات أوروبية، وغطاء رأسه عبارة عن قبعة حمراء ملفوفة بوشاح كبيرة من الشاش في شكل عمامة عربية، ونعله حسن مصنوع محلياً غير أنه في هيئة مغربية، إذ إنه مغلق من الأمام ومفتوح كلياً من الخلف، وكثيراً ما كان يصلي بالمسجد.

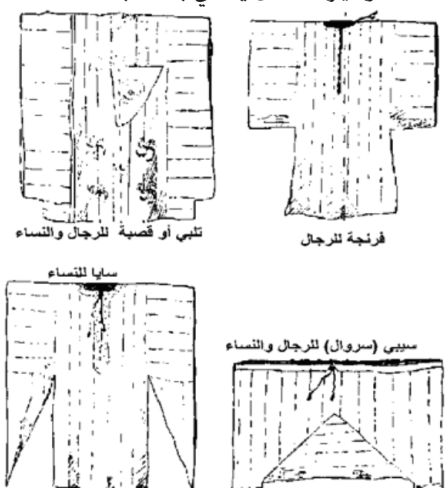

بعض أزياء الرجال والنساء في تنبكتو، عن:
.DUPUIS-YAKOUBA P252

ويحظى أمير تنبكتو ببالغ الاحترام من قِبَل الجميع، إنه بسيط جداً في أخلاقه، ولم يكن منزله أفضل تأثيثاً من منازل التجار المغاربة[2]، هو نفسه

خوذية أحياناً.

(١) ويحمل لقب «سلطان»، وهو خاضع سياسياً في تلك الآونة لسلطان الحوصة، ويتم اختياره من سكان تنبكتو، والذين يكتبون لسلطان الحوصة بهذا الاختيار، وحينما يموت يرثه أكبر أبنائه، وهو من يتم اختياره فعلياً. وأبناء المحظيات الذكور لا يرثون العرش بعد وفاة آبائهم، وإذا لم يكن له أولاد من زوجة شرعية يقوم السكان باختيار خليفة له من بعض قرابته، ومحظيات السلطان بعد وفاته ملك يمين من يليه في السلطنة، وللسلطان في الغالب زوجة شرعية واحدة، ولكنه يحتفظ بالعديد من المحظيات أو الزوجات الأخريات، ولهذه الزوجة بيت مستقل لنفسها وأطفالها وعبيدها، وهو يتخذ من محظياته ما يريد من النساء فيتزوجهن، وربما كانت من العبيد، ولزوجته الرئيسية الحق في إدارة المنزل. المرجع: الشعباني، ص١٢.

(٢) بيت السلطان يقع في ركن المدينة الشرقي، ويشغل مساحة كبيرة وممتدة من الأرض، التي يتم إحاطتها بسور له بوابة، وداخل هذه المساحة يوجد عدد من المباني، يُخصص بعضها للحرس الخاص ورجال البلاط، وغالباً ما يجلس السلطان عند البوابة للقضاء بين الناس وللقاء بعض من كبار رجال الحكم والإدارة وغيرهم من الأصدقاء. وتوجد هناك حديقة بسيطة خاصة ببيت السلطان مزينة ببعض الزهور والخضروات لمائدته، وهناك كذلك بئر، يتم رفع الماء منها بواسطة ساقية تشبه السواقي الفارسية، والتي تدار بواسطة ثور، ولها جِرَار فخارية يتم ملئها من البئر، وتصب مياهها في مجرى مائي ينساب نحو الحديقة. وتبدو في البيت مجموعة كبيرة من القيان والخادمات والموسيقيات، وللسلطان عديد من الأولاد، والذين يُعيّنون في مختلف المناصب من أجل تحقيق العدل بين مختلف

تاجر وأبناؤه كذلك تجار في مدينة جيني، وهو ثري جـــدّاً، فقد ورث ثروة كبيرة عن أســـلافه، ومتزوج بأربع زوجات، ويمتلك عدداً لا حصر له من العبيد.

والســـيادة هنا وراثية، حيث ستؤول لابنه الأكبر مـــن بعده، ولا يفرض الأميـــر أي جزية على رعاياه أو على التجار الأجانـــب، لكنه فقط يتلقى الهدايا، وحالياً لا توجد حكومـــة نظامية، فالأمير هنا مثل الأب بالنســـبة لأولاده لطيف وعادل، وليس لديه ما يخشاه من رعاياه، والكل خاضع لسلطانه.

موارد المدينة:

على الرغم مـــن أن هذه المدينـــة تُعدّ واحدة مـــن أهم وأكبر المـــدن الإفريقية فإنهـــا لا تمتلك أي موارد، فكثير من مســـاحات الأراضي فيها غير صالحـــة للزراعة، ومن ثَمّ كان على ســـكان تنبكتو تدبير حاجاتهـــم الغذائية من جينـــي، مثل الدُّخن والأرز والزبدة النباتية والعســـل والقطن والأقمشة الســـودانية والمؤن المحفوظة والشموع والصابون والبهارات والبصل والأســـماك المجففة والفســـتق وغيرهـــا، وإذا ما حدث وتوقفـــت حركة الملاحة من كابرا لتنبكتو فســـوف تتعـــرض تنبكتو لمجاعة محققـــة، ولتفـــادي مثل هذه المحنـــة فقد حرص الســـكان بشـــدة على تخزين كميات كبيرة من هذه المؤن في مستودعاتهم داخل البيوت.

السوق:

نتيجةً للحرارة القائظة؛ فإنّ الســـوق لا تنعقد حتى الثالثة بعـــد الظهر، فقد كان هناك عدد قليل من الغرباء الذين يمكن رؤيتهم باستثناء المغاربة من قبيلـــة الزواوة المجاورة، والذين غالباً ما يأتون إلى هنا، غير أن ســـوق تنبكتو بالمقارنة مع سوق جيني تُعدّ خاوية، فمن المعتاد رؤية القليل جدّاً من السلع المحلية، باســـتثناء ما يتم توريده بالطبع على متن الســـفن من مختلف المنتوجات الأوروبية الأخرى، كالأوانـــي الزجاجية والعنبر والمرجـــان والكبريت والورق وما إلى ذلك.

الأهمية التجارية للمدينة:

تُعتبـــر تنبكتو مـــن أكثر التنظيمـــات التجارية الممنهجـــة بشـــكل متميز فـــي هذا القســـم من إفريقيـــا على وجه الخصوص، فيعيش هنا أكثر من عشرة آلاف أو اثني عشـــر ألف نسمة من السكان المنخرطيـــن في التجارة، ويزيد هـــذا العدد ويقل بحســـب أعداد وأحجام القوافل التجارية التي تفد إلى تنبكتو وتبقى قليلاً بها[1].

والنســـبة الأكبر من السكان هم الزنوج من أمة الطوارق، وكذا العديد مـــن المغاربة الذين يقيمون بها أيضاً ويعملون بالتجارة بشكل رئيسي.

وهم في ذلـــك كالأوروبيين الذيـــن يتعاهدون المســـتعمرات على أمل جني الثـــروات، فهم عادةً ما يعودون لبلادهم للاســـتمتاع بثمار مجهوداتهم، ولديهم تأثير كبير على السكان الأصليين في تمبكتو، ويوجد منهم أعداد كبيرة هنا، وهم يشـــغلون أرقى المنازل فيها، وقد أثـــروا من التجارة، حيث يتلقون شـــحنات البضائع من «أدرار» و«تافيلات» و«توات» و«أردماس» و«طرابلـــس» و«تونس» و«الجزائر»، كما

السكان المحليين والوافدين. المرجع: الشعباني، ص١٢.

(١) أشار ديبوي سنة ١٨٩٧م إلى أنه كان يدخل المدينة سنوياً ٦٠:٥٠ ألف جمل سنوياً، تحمل الملح ومنتجات عديدة أخرى، وكان العدد الفعلي في سنة ١٨٩٥م حوالي ١٤ ألف جمل، وهو لم يكن المعتاد، حيث تلا ذلك مباشرة الاستعمار الفرنسي، المرجع: Dubois, p.257.

وفي سنة ١٩٠٧م كان عدد الجمال حوالي ١٥ ألف جمل، وفي سنة ١٩٢٦م كانت الأعداد من ٤:٣ آلاف جمل، وفي سنة ١٩٣٧م كانت الأعداد ثلاثة آلاف جمل. وقد كانت القوافل التي وصلت تنبكتو خلال عام ١٩٣٩-١٩٤٠م تحمل ما يقرب من ٣٥ ألف لوح من ألواح الملح، والتي كان يجب أن يحملها قرابة السبعة آلاف جمل، حيث يستطيع الجمل حمل خمس ألواح منها، المرجع:

Miner, Horace Mitchell, The primitive city of Timbuctoo, published for the American philosophical society by Princeton university press, 1952.

يتلقون التبغ وغيره من المواد الأخرى من أوروبا، ويرسلونها عبر الزوارق إلى جيني وأماكن أخرى.

ويقضي مغاربة مراكش وبقية تجار مختلف الدول الذين يسافرون إلى السودان حوالي ستة أو ثمانية أشهر في تمبكتو لبيع بضائعهم، وإعادة شحن قوافلهم بمنتجات السودان، وعلى الرغم من أن المغاربة يشعرون فيما بينهم هنا بتفوقهم وتميزهم عن الجميع؛ فإنهم وبكل احترام خاضعون لسلطات المملكة خضوعاً تاماً.

تجارة الملح:

يُعدّ الملح من أهم أنواع المنتجات الواردة لمدينة تنبكتو، وقد كان للملح مكانة عظيمة هناك تكاد تكون كقيمة التبر أو قد تضاهيه، وكان الملح يُجلب من مناجم تودني[1] وتغازى[2] على ظهور الإبل القادمة من هناك، وكان يُستخرج من الأرض في شكل شَقَف ضخمة وثقيلة، حتى إن الجمل الواحد لا يقوى على حمل سوى شقفتين فقط منها على كلّ جانب، حيث يتم حزمها بعضها إلى بعض على ظهورها، كما تُسجّل بعض الإشارات عليها؛ كالخطوط المرسومة باللون الأسود، أو بعض علامات أو رموز كالمعيّنات، التي تُنفذ بالحفر بأدوات حادة، وتدل على الوزن والمكان الذي استُخرجت منه، وغير ذلك مما كان الحمالون يتسابقون ويتفننون فيه من أجل الحصول على القليل من فتات الملح.

تجارة الرقيق:

يمثل العبيد شريحة كبيرة من سكان تنبكتو، وتتم معاملتهم بشكل أفضل كثيراً من عبيد البلدان الأخرى، فلباسهم جيد، وطعامهم كذلك، ونادراً ما يتعرضون للضرب أو الإهانة، وهم مطالبون في كلّ الأحوال بأداء الواجبات الدينية، والتي يؤدونها بكل حب وانتظام وحماسة، وقد شاهد رينيه مجموعات منهم عند صهاريج المياه الموجودة بجنوب غرب المدينة، يقومون بتعبئة القِرَب وحملها للبيوت التي يعملون في خدمتها، وقبل أن يشرعوا في ممارسة نشاطهم حول تلك الآبار يؤدون عدة رقصات تراثية قصيرة، فعلى الرغم من قوتهم وقسوة الظروف المحيطة بهم؛ فإنهم من أكثر الناس مرحاً وبهجة، فتجد وجوههم دائماً مملوءة بالفرح والسرور، وعند عودتهم للبيوت يسكبون هذا الماء في الجِرَار، حيث يبرد ويفقد نوعاً ما من مذاقه البغيض، كما رأى بعض الإناث منهن كذلك عند هذه الآبار يغتسلن بقِرَب من المياه.

تجارة المنسوجات:

يحمل تجار مغاربة طرابلس وأردماس البضائع الأوروبية إلى الهوسا، ويقايضهم تجارُها هناك بالذهب، ومن ثَمّ يعودون إلى وانجرا الغنية، فيقايضون بالذهب عبوات من أقمشة وانجرا الفاخرة الرقيقة المصبوغة باللون الأزرق الجميل والمزججة بالصمغ، ومن ثَمّ يذهبون بها لتنبكتو، وقد رأى رينيه لدى مضيفه قطعة جميلة من هذه الأقمشة تتشابه مع قماش آخر كان يصنعه الزنوج في الشمال في بلاد جالام، كما يذكر أنه رأى في تنبكتو نوعاً مشابهاً من القماش الذي كان يتم

(١) تقع «تودني» في قلب الصحراء، وبها الكثير من مناجم الملح، وتتطلب الرحلة لها من تنبكتو ثلاثة أسابيع، ولا يمر الطريق سوى بواحة واحدة فقط، وهي «أروان» على مسافة أسبوع من شمال تنبكتو.

(٢) تغازى: هي قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسُقُفها من جلود الجمال، ولا شجر فيها، إنما هي رمل فيه معدن الملح، يُحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها نُحتت ووُضعت تحت الأرض، ولا يُكنّها إلا عبيد مسوفة، الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يُجلب لهم من تمر درعة وسجلماسة، ومن لحوم الجمال المجلوبة من بلاد السودان، ويصل السودان من بلادهم إليها فيحملون منها الملح، ويُباع الحمل منه بمدينة إيوالاتن (ولاتة) بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالاً إلى عشرين، وربما انتهى إلى أربعين مثقالاً، وبالملح يتصارف السودان كما يُتصارف بالذهب والفضة، يقطعونه قطعاً ويتبايعون به. ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبد الهادي التازي، ص (٢٤٠-٢٤١)، الرباط، ١٩٩٧م.

استيراده من سيجو، وكان يصنعه زنوج البامبارا، وكان مطرزاً بشكل ممتاز، وبشكلٍ عام كان زنوج السنغال يقدّرون هذه المنتوجات تقديراً كبيراً.

الطوارق ومدى استبدادهم:

الطوارق هم المؤسسون الأوائل للمدينة، وأطلق عليهم المغاربة اسم «الطوارق»، بينما أطلق عليهم الزنوج اسم «السورجوس»، وهم عرق رحّال، يسكنون ضفاف نهر ديوليبا من قرية ديري إلى الهوسا، وهي على مسافة عشرين يوماً إلى جنوب شرق تنبكتو، وتقع في فلاة واسعة تحمل اسم النهر نفسه، ولم يعلم رينيه هل يصلها أحد أفرع النيجر أم لا.

وتجارة تنبكتو إلى حدٍّ كبير يحميها ويراقبها الطوارق، وهم أمة حربية، يجعلون من السكان المحليين مصدر تمويل دائم لهم من أجل هذا الامتياز، فحرصاً على تجارتهم يمنحهم السكان المحليون ما يطلبونه، إضافةً لما يدفعونه من المكوس المفروضة على تجارتهم في كابرا من قِبَل السلطات الحكومية، ورفض إرضائهم من المحتم سيؤدي إلى عواقب وخيمة؛ حيث إن قطعهم الصلة بين تنبكتو والبلدان المحيطة بها مع كابرا، مع عدم وجود موارد زراعية لديهم، حتماً سيؤدي إلى مجاعة محققة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لذا فلن يجرؤ أحدٌ من أولئك التجار على مجرد التصدي لابتزازاتهم المستمرة، والإتاوات التي يفرضونها، وإلا فلسوف يعلنون الحرب على تنبكتو، ويقطعون الاتصال مع الميناء، ولن يسمحوا بمرور أية إمدادات إليها.

النبات والمراعي:

بسبب وقوع المدينة في سهل ضخم من الرمال البيضاء الناعمة؛ فليس بها ثمّة نباتات بل مجموعة من الأشجار والشجيرات المتقزمة، ومن أبرزها شجر السنط الذي لا يتعدى ارتفاعه لأكثر من ثلاثة أو أربعة أقدام، كما أن بها نبات يشبه الباذنجان، ويوجد بمركزها بعض من أشجار النخيل، كما توجد في السهول الرملية عدد من الأعشاب والحشائش الصحراوية التي توفّر بالكاد الغذاء الضروري للإبل، فقد كان رينيه- على حدّ قوله- يرى القطيع من إبل المراكشيين، الذين يسافرون عبر الصحراء الكبرى بالقرب من البلدة، يمشي هنا وهناك ليقتات على النباتات الشوكية وأفرع أشجار السنط التي جفت لدرجة التيبس من حرارة الشمس الحارقة والرياح الساخنة.

ولأن المدينة شبه معدمة تماماً من المراعي؛ فقد كان السكان يلجؤون للحصول على كميات من الأعلاف من كابرا، إذ تنمو هناك في الأهوار، وبعد أن تُجنى يتم تخزينها هناك أعلى أسطح المنازل لتجف بفعل حرارة الشمس، ومن ثَمّ تُصدّر لتنبكتو عبر الميناء على متن قوارب الشحن لمربي الخيول والماشية والأغنام والماعز.

التبغ:

توجد بعض الزراعات البسيطة من التبغ بالقرب من صهاريج المياه الموجودة جنوب غرب المدينة، وهذا النبات لا يرتفع هنا لأكثر من خمس أو ست بوصات، وبفضل الري المستقر في تلك المنطقة يعتبر هو النبات الوحيد المزروع ههنا.

ويعمل الزنوج في جني نبات التبغ واستخلاص البذور منه لإعادة استزراعها مجدداً، ويقومون بتجفيف هذه الأوراق وطحنها في هواوين معدنية، ثم يستخلصونه مسحوقاً أخضر، ويستخدمونه في التدخين دون أية إضافات تُذكر، وليست له أدنى رائحة التبغ، ويباع في الأسواق للاستهلاك المحلي، غير أن طبقة الأثرياء لا يستخدمونه، ويفضلون الأنواع المميزة التي تأتي من المغرب، لأنها أكثر جودة وأفضل نكهة، وأغلب السكان عادةً لا يدخنون باستثناء طوائف الجوالة المغاربة الذين يسكنون في أطراف المدينة فإنهم يستخدمون الشبك[1].

(١) وفقاً للاب هوكارد، والذي زار تنبكتو مطلع القرن العشرين

لمحة عن الأخلاق والعادات:

ذكــر رينيه أن مضيفه كان يتمتع بكَمٍّ عظيم من السماحة وحســن الخلق؛ فلم ينتقده في أي شيء، بل كان لطيفــاً معه على الدوام، هادئاً محتشــماً، ويبدو في الأربعين أو الخامسة والأربعين من عمره، منتصب القامــة، ويبلغ من الطول حوالي خمســة أقدام، شجاعاً، وتبدو في وجهه بعض آثار الجدري، وكان بهي المُحيّا، رزيــن الخلق، جليل القدر، وكان متجــرداً من كلّ نقيصــة، غير أنــه كان متعصباً في دينــه[1]، والمجتمع بأســره بمثل هذه الأخلاق الحميدة الفاضلة والبســيطة كأخلاق العظماء[2]، وفي حالة الحرب يكون الجميع مستعدين للخدمة، وتــؤدي تلك الأخلاق الطيّبة وغيــر المؤذية لهؤلاء الناس لعدم وجود مساحة ولو صغيرة للمشاحنات، التي وإن حدثت يلجأ السكان إلى كبرائهم ورؤسائهم لإصلاح ذات البين، وذلك من خلال مجلس من كبار الحكماء، والذي يتكون أغلب أعضائه من الزنوج.

السكان:

سكان تمبكتو الأصليون كلهم مسلمون، والرجال مســموح لهم بالزواج من أربع زوجات وفقاً لتعاليم الدين. والرجال أحجامهــم طبيعية، وبنيتهم جيدة، ومشــيتهم حازمة، ولونهم أســود داكن وصاف في الوقت ذاته، وأنوفهــم معقوفة أكثر بقليل من أنوف الماندينجــو، وشــفاههم رقيقــة، وعيونهم كبيرة ومستديرة، ولباسهم مشابه للباس العرب المغاربة، وهم في أمر التجارة أذكياء وجادون، والتجار أثرياء، ويمتلكــون الكثير مــن الرقيــق، وغالبيتهم تتعدد زوجاتهم بخلاف الإماء الكثيرات، ويتعايش المغاربة فقط مع إمائهم حيث يعملــن في بيع البضائع في الشــوارع، مثل الكولا والبهارات وغيرها، وبعضهن الآخــر لهن حوانيــت صغيرة بحيز الســوق، بينما المحظيــات منهن يبقين في المنــازل للقيام بإدارة شؤون المنزل ورعايتها، وأعلاهن مقاماً عند الزوج مَن تعد له وجباته.

الطعام والأثاث والأدوات المنزلية والمفروشات:

يأكل غالبية سكان تنبكتو جيداً؛ حيث يتناولون وجبتين رئيستين في اليوم، وتتكون وجباتهم من الأرز والكسكس المصنوع من الدُّخن، مع اللحم أو السمك المجفف، والزنوج الميسورون شأنهم في ذلك شأن المغاربة، ويكون الإفطار على خبز القمح والشــاي والزبــد المصنوع من حليب البقر، أما أولئك الذين هم أقل حالاً فيســتخدمون الزبد النباتي. وبشكلٍ عــام المغاربة مميــزون عن الزنــوج بصفة عامة، ويعتبرون أنفســهم رؤســاء عليهم. وتتكون الأدوات المنزلية من القِرَب والصحون الخشــبية، وهم غير ملمين باستخدام السكاكين والشوك، ويعتقدون أن كلّ الناس يأكلون مثلهم بأصابعهم.

الأزياء والحلي وتصفيفات الشعر:

يتميز ســكان تمبكتو وكذلــك منازلهم بمنتهى الأناقة، فترتدي النســاء ملابس في غاية الهندام، حيث يتكون زيهــن من «قصبة»[3] مثل التي يرتديها

عقب الاستعمار الفرنسي، فقد ذكر أن جميع سكان تنبكتو يدخنون رجالاً ونساءً وحتى الأطفال. المرجع:
Mgr A. Hacquard, Monographie de Tombouctou, Accompagnee de nombreuses illustrations et d une Carte de la region de Tombouctou, p.12, Paris, 1900.

(١) تُطلق هذه العبارة كثيراً من الرحالة والمؤرخين على الأشخاص الملتزمين دينياً أو ربما شبه الملتزمين، أما التشدد فلا مجال له هنا بالكلية، حيث لم يكن الرجل من علماء الدين، والذين من المؤكد أنهم بالطبع بعيدين كل البعد عن أي تشدد.

(٢) عدّد ابن بطوطة في كتاباته كثيراً من هذه السمات التي ميزت شعب السودان بصفة عامة، وعدها من محاسنهم، كقلة الظلم وشمول الأمن وعدم تعرضهم لمال من يموت من البيض ولو كان القناطير المقنطرة، ومواظبتهم على الصلوات، والتزامهم فيها الجماعات. المرجع: ابن بطوطة، ص٢٩٤.

(٣) ويطلق عليها Tilbi، مثل تلك الخاصة بالرجال، ولكنها

الرجـــال، غيـــر أن أكمامها ليســـت واســـعة كتلك الخاصة بالرجال، وأحذيتهن مغربية، وتتنوع أغطية الرؤوس؛ ففي بعض الأحيان تكون عبارة عن «فتارة» من الشـــاش الناعم، وأحياناً مـــن القطن الأوروبي الممشط[1].

وكان شـــعرهن مضفراً بشكل جميل، والخصلة الرئيسة التي يبلغ سمكها حوالي بوصة واحدة تأتي من الخلف لمقدم الرأس، وتنتهي بقطعة من العقيق الأحمر ذات شكل دائري مقعر في المركز، ويضعون وسادة صغيرة تحت الخصلة لدعمها، ويُضاف لتلك الزخرفة العديد من قطع الحلي الأخرى، كالمرجان والعقيق الأحمر وأحياناً المرايا.

ويطلَين شـــعورهن بالدهانـــات المصنوعة من عطور تشـــبه العنبر، وأحياناً يدهـــنّ أبدانهن كلها بالزبدة، ولكن بنســـب أقل كثافـــةً مما هو معروف عند نســـاء البامبارا والماندينغو؛ فأشعة الشمس الحارقة التي تصاحبها وتزيد من قســـوتها الرياح الشرقية الساخنة تجعل هذه العادة ضرورية لديهن، ونســـاء الطبقة الأكثر ثراءً لديهن دائماً عدد كبير من حبات الزجاج في شـــكل عقـــود حول أعناقهن وفي آذانهن.

فضفاضة لتساعدها في ستر جسدها، وتكون سابلة من القطن أو من الأقمشة المستوردة من أوروبا، ويرتدين كذلك Saya، وهي ما تُعرف بالمصرية ذات الأكمام الطويلة، وكانت النوعيتان تزركشان بأشرطة من الحرير الأحمر والأبيض والصفر والأخضر على حسب القدرات المادية لكل فئة من السكان، المرجع: MGR, A. Hacquard, Op. Cit. p.29.

(١) كانت النساء في تنبكتو كاشفات الوجوه، لكنهن يسترن أعناقهن بما يُعرف «بايبرن»، فضلاً عن ارتداء أغطية للرأس تُعرف باسم «بايبوري»، أثناء أداء الصلاة وأيام الأعياد والمناسبات الدينية، كما أصبحن يضعن عمامات كبيرة على رؤوسهن ليصبح ذلك أمراً شائعاً بينهن في بلاد السودان، كما قلدتهن النساء غير المسلمات في ذلك الأمر، وكان الفرق الوحيد بينهما هو وضع الخمار على العمامة من قِبَل المرأة المسلمة، وفي بعض الأحيان كن يغطين رؤوسهن بقطع كبيرة من القماش الأسود.

نتائج الدراسة:

مكث رينيه كاييه بتنبكتو أربعة عشـــر يوماً فقط (منـــذ ٤-١٩ شـــوال ١٢٤٣هـ/١٩ أبريـــل- ٤ مايو ١٨٢٨م)، وعلـــى الرغـــم من قصر هـــذه المدة فإنه اســـتطاع أن يعطي للقارئ تصوّراً كاملاً حول المدينة فـــي فترة مهمّة من فترات حياتها، وقد جاءت كتاباته ثرية وغزيرة بالمعلومات حول كثير من عادات وتقاليد الســـكان وأخلاقهم وطبائعهم وعرقياتهم، وكثير من معالم تنبكتـــو المعمارية والعمرانيـــة والطبوغرافية والجغرافية والمناخية، ومختلف أنشطتها الاقتصادية وبخاصة التجارية منها، كمـــا صوّرت لنا كتاباته نهر النيجر تصويراً بليغاً، حيث كان هو الهدف الرئيســـي مـــن هذه الرحلة؛ فتناول كلّ مـــا يتعلق به منذ بدايته وحتـــى مدينة تنبكتو التي اســـتقر بها قبـــل العودة للمغرب، كمـــا تناول كثيراً من مصـــادر ثروة تنبكتو، ومدى وحجم هذه الصادرات وكذلك الواردات، ودور الطوارق ووضعهم وأثرهم في المدينة هم وغيرهم من مختلف الطوائف الأخرى في مختلف شؤون المدينة.

وقد اعتُبرت كتابات رينيـــه مرجعاً مهماً لكثير ممـــن جاؤوا بعده مـــن الكُتاب والرحالـــة، والذين ثمنّوهـــا بالفعل، وقدّروا مدى مـــا أفادتهم به؛ على الرغم من اشتمالها على بعض المغالطات التي كان لابد من الوقوع فيها بطبيعة الحال.

وقد أوضحت هذه الدراسة العديد من الدلالات المهمة والنتائج، ومنها:

- تكريس الغرب لكل الموارد البشرية المتنوعة، من رحالـــة ومفكريـــن وباحثين، لخدمـــة بلادهم وتوجهاتها.
- مدى استمرارية التفوق التجاري والاقتصادي لتنبكتو رغم كل الحروب والفتن التي مرّت بها.
- التهافت الاســـتعماري المحموم على مختلف أجزاء السودان الغربي بسبب ثرواته الاقتصادية.
- بيان الوضع الحقيقي لتنبكتو، وإعادة رســـم صورة واقعية لكل مقوماتها ومعالمها لدى الغرب ■